جوانب من الحياة الثقافية بمدينة المدية وأحوازها من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

Aspects of Cultural Life in Médéa and its Surroundings from the late Nineteenth century to the Mid-Twentieth Century

عايد نورة [1]
جامعة يحي فارس بالمدية، Noura.aid12@hotmail.com

دقيش يمينة [2]
جامعة يحي فارس بالمدية، yaminadeghiche1992@gmail.com

تاريخ الاستلام: 15 /12/ 2025 **تاريخ القبول:** 18 /12/ 2025 **تاريخ النشر:** 10 /01/ 2026

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على ملامح الحياة الثقافية بمدينة المدية وأحوازها خلال الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، في ظل التحولات العميقة التي شهدتها الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي. فقد عرفت المدية، باعتبارها إحدى الحواضر الإسلامية العريقة وعاصمة لبايلك التيطري في العهد العثماني، صراعًا ثقافيًا محتدمًا بين مشروع الاستعمار الرامي إلى طمس الهوية العربية الإسلامية، وبين إرادة الأهالي في الحفاظ على مقوماتهم الحضارية والدينية.

تعتمد هذه الدراسة على المنهج التاريخي–التحليلي والمقارن، مع الاستناد إلى المصادر المحلية والأرشيفية التي وثّقت نشاط المؤسسات الدينية والتعليمية والزوايا والمدارس العربية الحرة، إضافة إلى الجمعيات والنوادي والمسرح والكشافة، التي شكلت رافدًا مهمًا في مواجهة سياسة الفرنسة والتنصير. وخلصت الدراسة إلى أنّ الحياة الثقافية في المدية كانت مجالًا للمقاومة ضد الغزو الثقافي، وأنّ النخبة المحلية لعبت دورًا رائدًا في ترسيخ قيم الهوية والوعي الوطني الذي مهّد لثورة نوفمبر المجيدة.

الكلمات المفتاحية: مدينة المدية، المقاومة الثقافية، المدارس العربية الحرة، فوج الفداء الكشفي، جمعية الإرشاد.

Abstract:

This article aims to highlight the features of cultural life in the city of Médéa and its surroundings during the period extending from the late 19th century to the mid-20th century, amid the profound transformations that Algeria experienced under French colonization. Médéa, being one of the major Islamic centers and the capital of the Beylik of Titteri during the Ottoman period, witnessed an intense cultural struggle between the colonial project seeking to erase the Arab-Islamic identity and the local population's determination to preserve their religious and civilizational heritage.

This study adopts a historical-analytical and comparative methodology, based on local and archival sources documenting the activity of religious and educational institutions, zawiyas, free schools, associations, and local press that contributed to resisting the policy of Frenchification and Christianization. It concludes that Médéa's cultural life served as from of resistance to cultural domination, and the colonial power, and he played a leading role in preserving identity and promoting national consciousness which paved the way for the Algerian Revolution.

Keywords: Médéa city; cultural resistance; the Arabic schools; the scout ALFIDAA; ALIRCHAD Association

المؤلف المرسل: عايد نورة، Noura.aid12@hotmail.com

مقدمة:

عرفت الجزائر منذ سقوطها تحت الاحتلال الفرنسي سنة 1830م تحولات عميقة مست مختلف مناحي الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. فقد أدرك المستعمر مبكرًا أنّ السيطرة العسكرية لا تكفي لإخضاع الشعوب، وأنّ إخضاع الفكر والعقيدة واللغة شرطٌ لنجاح مشروعه الاستعماري، ومن هذا المنطلق اعتمد على سياسة الغزو الثقافي المنهج والقائم على محو الهوية العربية الإسلامية واستبدالها بالثقافة الأوروبية. وكانت مدينة المدية، بحكم موقعها الجغرافي ومكانتها التاريخية كعاصمة لبايلك التيطري، إحدى أهم الساحات التي تجسّد فيها هذا الصراع بين ثقافتين: ثقافة دخيلة قائمة على التنصير والفرنسة، وثقافة أصيلة متجذّرة في العقيدة الإسلامية والعروبة. غير أنّ أهالي المدية، بعلمائها وزواياها ومدارسها الحرة، وقفوا سدًّا منيعًا أمام محاولات التذويب الثقافي، فحافظوا على التعليم العربي القرآني، وأنشأوا الجمعيات والنوادي التي واصلت رسالتها الإسلامية رغم التضييق الاستعماري.

من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة التي تسعى إلى تقديم قراءة تحليلية للحياة الثقافية في مدينة المدية وأحوازها من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، بوصفها تجربة مصغّرة تعكس مسار الجزائر الثقافي في مواجهة الغزو الاستعماري. وتنطلق هذه الدراسة من إشكالية رئيسية مفادها: كيف تميّزت الحياة الثقافية في مدينة المدية وأحوازها خلال الاحتلال الفرنسي، وما طبيعة الصراع الفكري بين الثقافة الإسلامية الأصيلة والثقافة الاستعمارية المفروضة؟

1. الواقع الثقافي لمدينة المدية أواخر القرن 19 م ومطلع القرن ال 20م:

شهد المجتمع المداني مع مطلع القرن ال 20م، زخما ثقافيا تجسد في ظهور بعض الجمعيات والنوادي، الصحافة، المسرح والكشافة بدفع من النخب والشخصيات اللمدانية المثقفة.

1.1. الجمعيات والنوادي بمدينة المدية:

ظهرت العديد من الجمعيات في مدينة المدية خلال الفترة الاستعمارية، حيث ساهمت الإدارة الفرنسية وكذا المستوطنون في تأسيسها، فيذكر رئيس مكتب الشؤون الأهلية جون ميرانت (Jean Mirante) بأنه كان للجمعية الخيرية نشاط في المدية في الفترة بين (1903-1938)م، إذ أنشأت بها مكتبا في 26 فيفري 1903م وتولّت مهمّة توزيع الصّدقات على المسلمين المعوزين وتخصيص الإعانات لهم، بالإضافة لهذه الجمعية أنشأت كذلك لجنة سميت باللجنة الخيرية بإعانة وإشراف من الإدارة الاستعمارية وتشكلت معظمها من الأهالي.[1] وحسب سعد الله فإن مداخيلها كانت من الأوقاف الإسلامية المغتصبة.[2]

علاوة على الجمعيات الفرنسية واليهودية بالمدية فقد أسس المسلمون سنة 1920م **"جمعية الوحدة الجزائرية"** وترأس فرع المدية "إسكندر محمد بن القاضي عبد المؤمن"،[3] وذلك بمبادرة من الأمير خالد وكان نشاطها سياسيا بالدرجة الأولى، تحمس له شباب واع لظروفه وأحواله يريد أن يكون جبهة قوية للوقوف في وجه المستعمر، واهتمت أيضا بالمسرح والأعمال الفنية. ونتيجة لانتشار النشاط الإصلاحي لجمعية المسلمين الجزائريين في ربوع الجزائر، قامت الجمعية بفتح فرع لها بالمدية سنة 1933م. وتأسست أيضا في ثلاثينيات القرن 20م جمعية تعليمية ثقافية مهمة سميت **"بجمعية الإرشاد"** تهدف إلى تحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية.[4]

فيما يخص النوادي في المدية فهناك اختلاف في التاريخ الفعلي لتأسيس أول ناد بالمدية والذي سمّي **"بنادي المولودية المدانية"** إذ تعود بداياته إلى 1923م حين فكّر بعض الشبان وعلى رأسهم: الشريف السبوي، عبد الرحمن عبدي، الشرفي محمد، حسين ونورالدين بوشنافة في تأسيس حركة رياضية وثقافية، غير أنّ نشاط النادي لم يستمر إلّا لموسمين فقط وتوقف، وبعدها ظهر **"نادي الشبيبة الإسلامية"** سنة 1934م الذي حلّ محل النادي السابق الذي كان نشاطه إصلاحيا بالدرجة الأولى.[5]

قام المعمرون سنة 1929م بتأسيس نادٍ رياضي سمّي **"بسبورتينغ المدية"** ولم يسمح للأهالي بالمشاركة فيه إلاّ في بعض الحالات، هذا ما دفع بشباب المدية لتأسيس حركة رياضية وثقافية خاصّة بهم عُرفت **"بنادي الهلال"** والذي تأسّس ما بين (1933م-1935م) جنبا للمسجد الحنفي والثكنة العسكرية الفرنسية وهذا بدعم من عائلة اسطنبولي وبوعمرة وغربالي ومنور شيخ المحجوب، فنشط في المجال الرياضي والفنّي والمسرحي واختار

له الألوان الوطنية. تطور النادي الرياضي وأعلن عن ميلاد أول فريق منظم في جمعية تأسيسية يوم 07 جويلية 1945م سمّي **"أولمبي المدية"**، وقد حضر الاجتماع التأسيسي كل من: المهدي بن تغري، صحراوي شيخ التوهامي، نورالدين أنفوسي، مصطفى والي التركي وأحمد مزياني، واختاروا له ألوانا بعيدة عن الألوان الوطنية من أجل تجنب رد فعل الإدارة الاستعمارية.[6]

2.1. ميلاد الحركة الكشفية:

ظهرت الكشافة في الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى على يد الكولون الذين كان هدفهم تربية وتدريب أبناءهم، وكانت مرآة عاكسة للكشافة الموجودة بفرنسا على الرغم من انخراط بعض الشبان الجزائريين في صفوفها، لكن الاحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال وما رافقها من استعراضات استفزازية شاركت فيها الكشافة الفرنسية دفعت بالجزائريين إلى الانسحاب من صفوفها والاتجاه نحو تأسيس كشافة إسلامية خاصة بالجزائريين. وبالتالي فإن إرهاصات الكشافة الجزائرية تعود إلى ثلاثينيات القرن الماضي، فيذكر **محمد الصالح رمضان** بعض أفواج الكشافة الإسلامية آنذاك وهي: "الرجاء" و"الصباح" و"الإقبال" بقسنطينة، "الفلاح" و"القطب" بالعاصمة، "الخلود" بمليانة، وفي سنة 1939م فكر أحد أوائل الكشافين ورواد هذه الحركة بالجزائر وهو الشهيد **محمد بوراس**[7] في إنشاء جامعة للكشافة الإسلامية بالجزائر، وتم ذلك بالفعل وأصبحت في الحال هدفا لسخط الإدارة الفرنسية.[8]

إن نشاط الكشافة الإسلامية الجزائرية لم يقتصر على منطقة معينة، بل انتشر في كل ربوع الجزائر وكانت المدية إحدى المدن الجزائرية التي عرفت النشاط الكشفي، وحسب **الحاج محمد صفار بوني** وهو من أوائل الكشافين بالمدية فإنّ البدايات الأولى لها بالمدية تعود إلى زيارة قام بها "فوج القطب" من الجزائر العاصمة لإقامة مخيم بمنطقة عين العرايس لمدّة ثلاثة إلى أربعة أيام حين كان عمر صفار بوني لا يتعدى 14 سنة، فلمّا رأى رفقة صديقيه عبد العزيز بن دالي وفضيل اسكندر مختلف الأناشيد التي سلبت عقولهم فكّروا حينها في بعث الكشافة بالمدية.[9] وتعود قصة تأسيس الكشافة الإسلامية المدانية إلى حمّام بن رامول أين تأسس **"فوج الفداء"** ومكث هناك شهرا، وانضم إليه شباب المدية منذ سبتمبر1947م، ثمّ نُقل إلى حمّام بن قيار أين تكوّن الفتيان والجوّالة لمدّة أربعة أشهر ومنهم: بابا علي بشير، بلعزوقي مصطفى، بن مهل أحمد، حمودي فضيل، فضيل حاج ميهوب، أحمد بن رامول، كاديك، مصطفى بوهدة وغيرهم.[10] وتشير أحد التقارير الفرنسية إلى تكوّن فوج المدية الكشفي من 25 عضوا مقسمين إلى مجموعات مسؤولها الأوّل هو "الحاج ميهوب سيدي" موسى وهو ناشط سياسي بالإضافة إلى العديد من النشطاء السياسيين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية.[11]

3.1. الصحف والجرائد بالمدية:

حسب نماذج الصحف التي عثرنا عليها في موقع "المكتبة الوطنية الفرنسية" (**BNF**)، فإنّ بداية النشاط الصحفي في المدية تعود إلى سنة 1892م،[12] أمّا بالعودة إلى كتاب زبير سيف الإسلام فذكر أنّ أوّل جريدة صدرت في المدية هي جريدة: **"صوت جنوب المدية" Echo du sud de Médéa)** وذلك سنة 1864م واستمرت حتى 1905م ولا نعلم إن صدرت في مدينة المدية أم خارجها، وتلتها صحف أخرى تعود لأواخر القرن 19م وبقيت تصدر حتى مطلع القرن 20م، وهذه الجرائد هي:[13]

- **جريدة الفانوسة المدانية.(La lanterne Médéenne)**

هي جريدة أسبوعية تصدر كل يوم أحد صدرت حسب (BNF) سنة 1889م بالمدية التي لم نعثر على عددها الأول،[14] صدر لها ما يقارب الاثنين والثلاثون عددا سنة 1889م، وسبعة وأربعون عددا سنة 1890م، وثمانية وأربعون عددا سنة 1891م، وستة وعشرون عددا سنة 1892م.[15]

- **جريدة المداني الصغير Le Petit Médéen)**

تصدر في المدية كل أسبوعين يومي الأحد والخميس، صدر عددها الأوّل بتاريخ 19 جويلية 1891م ونجهل تاريخ توقفها، كما صدر لها خلال نفس السنة 17 عددا آخره كان يوم 13 سبتمبر 1891م.[16]

- **جريدة بريد المدية Le courrier de Médéa)**

هي جريدة أسبوعية جمهورية مستقلة، كتب عنوانها في الأعلى بخط عريض باللغة الفرنسية، صدر عددها الأوّل يوم الأحد 31 ماي 1896م وبقيت تصدر حتى 13 ديسمبر 1896م، فخلال تلك الفترة كانت تصدر بمعدل ثلاث مرّات في الأسبوع وقاربت أعدادها 22 عددا، وكل عدد يتضمّن من ثلاث إلى أربع صفحات وتباع بسعر 10 سنتيمات، وقد أشرف على تسييرها السيّد **بودة** (**L. BOUDET**) فكان مقرّها في شارع المفكرين الأحرار بمبنى أبناء السلطان سلومون بمدينة المدية.[17]

4.1. ظهور المسرح في مدينة المدية:

سجّل لنا التاريخ أنّ المدية عرفت المسرح على يد الأمير خالد الذي شجّع على تأسيس فرقة مسرحية سنة 1911م، إذ شكّل الجمعية المسرحية بالمدية وأسند رئاستها إلى اسكندر محمد القاضي، فمثّلت عام 1912م مسرحية "**المروءة والوفاء**" لخليل اليازجي بمنزل رئيسها، ثمّ مسرحية "**مقتل الحسين**" سنة 1913م والتي أشرف على عرضها الأمير خالد مع وجهاء المدية مثل "محمد بن أبي شنب" والمفتي "احميدة بن فخار" وكان ذلك بزاوية سيدي أحمد البركان، ومثّلت أيضا مسرحية "**يعقوب اليهودي**" وهي مقتبسة عن مسرحية تاجر البندقية لشكسبير.[18] وبعد الحرب العالمية الأولى وتحديدا ما بين (1919-1921)م نشطت الحركة الثقافية وظهرت فيها جمعية فنية ورياضية مثلت مسرحية "**أمير الأندلس**" ثمّ مسرحية "**عاقبة البغي**" التي برز فيها **محي الدين بشطارزي**[19]كممثل وفي سنة 1920م أسّس كذلك الأمير خالد جمعية الوحدة الجزائرية التي سبق وأشرنا إليها وقدّمت مسرحيتان هما "**في سبيل التاج**" و"**غفران الأمير**". ومن أعمدة المسرح بالمدية **المحبوب اسطنبولي**، الذي كان أوّل لقاء له بخشبة المسرح سنة 1920م وعمره آنذاك لا يتجاوز السبع سنوات.[20]

5.1. نماذج عن الشخصيات والنخب:

برزت في المدية العديد من الشخصيات التي لعبت دورا بارزا في المقاومة الثقافية، نذكر منها:

* محمد بن أبي شنب (1862-1929)م:

هو محمد بن العربي بن محمد أبي شنب ولد سنة 1862م في ضاحية تاكبو بالمدية، وهناك من يرجع ميلاده إلى يوم الثلاثاء 26 أكتوبر 1869م بضاحية عين الذهب، ينتمي إلى عائلة محافظة من أصل كرغلي، حفظ القرآن الكريم كاملا وتعلّم الكتابة والقراءة، تعلّم اللغة الفرنسية في المدرسة الابتدائية وأكمل دراسته الثانوية ثمّ انتقل إلى مدينة الجزائر سنة 1886م ليلتحق بطلبة المعهد العالي لتكوين المعلمين ببوزريعة وعُيّن عام 1888م معلما ابتدائيا في اللغة الفرنسية. كرّس حياته لدراسة وخدمة اللغة العربية وآدابها فنال سنة 1894م دبلوم اللغة العربية من المدرسة العليا للآداب بالجزائر، وفي سنة 1898م شرع في تعلّم العديد من اللغات أجنبية وهي: الإسبانية، الألمانية، اللاتينية، التركية، العبرانية والفارسية.[21] وبعدها بدأ حياة جديدة بعدما ترك وظيفته كمعلّم وتولّى المهمّة الجديدة كأستاذ في المدرسة الكتانية الرسمية في قسنطينة عام 1898م خلفا لعبد القادر المجاوي، ثم درّس بالمدرسة الثعالبية سنة 1901م في محل الشيخ عبد الرزاق الأشرف، ليترقّى عام 1908م إلى أستاذ محاضر في الشعر العربي بكلية الآداب بجامعة الجزائر.[22]

* الشيخ مصطفى فخار (1892-1979)م.

هو مصطفى فخار بن حميدة بن علال ولد في مارس 1892م بحي عين الذهب، ترعرع في أسرة عريقة النسب وكريمة الأصل، كان والده عالما جليلا وملما بالفقه المالكي، فتعلّم عنه مبادئ وأصول اللغة والفقه وحضر معه دروس "الشيخ بلحصيني" في التفسير والتوحيد، فحفظ القرآن في سن صغير على يد "الشيخ بن يلّس" واشتهر بحبه للمطالعة والشعر والحكمة وتفتحه على اللغة الفرنسية قولا وكتابة. سافر إلى مدينة الجزائر ونزل بمقصورة الجامع الكبير حيث نسخ من صحيح البخاري وصحيح مسلم، كما زار في جامع الزيتونة "الشيخ الطاهر بن عاشور" الذي منحه إجازة في الحديث والفقه والتفسير وشهادة في العلم سنة 1936م.[23] عمِل الشيخ مصطفى فخار كمفتي للمذهب المالكي بالمدية، وعيّنه الشيخ البشير الإبراهيمي كعضو في لجنة الإفتاء الشرعي نظرا لذكائه وبراعته في تنزيل الأحكام الشرعية والنوازل الفقهية وسعة اطلاعه وحسن إدراكه لحوادث ذلك العصر، كما تولّى الإمامة بالمسجد المالكي (جامع الإمام حاليا) فكان يعقد حلقات ذكر بشكل يومي بعد صلاة العصر ويحيي ليالي رمضان بدروس السيرة النبوية.[24]

* **العلاّمة فضيل إسكندر (1901–1982)م.**

هو إسكندر محمد فضيل بن حسين بن أحمد بن رمضان، العلاّمة وفقيه ومؤرخ وأديب ومفسّر، ولد بحي تاكبو في 03 ماي 1901م، وترعرع في أسرة محافظة على القيم الدينية والأخلاق الإسلامية، كان جدّه إماما بالمسجد الحنفي أمّا عن أبيه فكان حافظا للقرآن الكريم وهذا ما ساعده على الالتزام بالدين والقيم، امتاز فضيل إسكندر بقوة ذاكرته فحفظ 3500 حديث بسندها الكامل، فحفظ القرآن الكريم كاملا في سن التسع سنوات وكان لا يقرأ كتابا إلاّ وحفظه، وقد أطلق عليه "الشيخ الفحّام" عميد جامع الأزهر اِسم "بصار الحديث" أو "صيار الحديث" وهذا عندما زاره سنة 1968م. عندما زار الشيخ عبد الحميد بن باديس المديّة سنة 1933م عيّنه رئيسا لفرع جمعية العلماء المسلمين بالمديّة وعضوا في مجلس الفتوى، وطلب منه حفظ تفسير القرآن، فبدأ بتفسيره عقب كل صلاة الجمعة حتى حفظه سنة 1969م، وقد زار "الشيخ الشعراوي" المدية وتناظر معه مناظرة دامت من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر وخرج فيها الشعراوي منبهراً من سعة فكر اِطّلاع العلامة فضيل إسكندر.[25]

* **المحبوب اسطنبولي (1913–2000)م.**

هو محمد المحبوب اسطنبولي، ولد عام 1913م بالمديّة وينحدر لعائلة محافظة، ممثل وكاتب مسرحي احتكّ بالعمل المسرحي منذ صباه، وصعد إلى خشبة المسرح سنة 1920م وعمره لا يتجاوز السبع سنوات، وكان يحضر مع والد "الشيخ محمود اسطنبولي" تدريبات فرقة التعداد الإسلامي لمسرح المدية، وشارك في تأسيس نادي الهلال الرياضي سنة 1935م، ثمّ انتقل إلى مدينة الجزائر للنّضال السياسي في حزب الشعب سنة 1939م، وبعدها أنشأ فرقة موسيقية ومسرحية رفقة "جلول باش جراح" في مدينة الجزائر عُرفت بِاسم "رضا الباي" والتي كانت أوّل فرقة لموسيقى "الجاز".[26]

2. السياسة الفرنسية تجاه المؤسسات الدينية والثقافية بمدينة المدية وأحوازها:

باشرت إدارة الاحتلال بعد احتلال المدية سنة 1840 في اخضاع الأهالي إلى القوانين الفرنسية، متخذة بذلك أسلوب النهب والتخريب والمصادرة باسم القانون، هذا ما أثر بشكل كبير على ملامح الحياة الثقافية بالمدينة.

1.2 السياسة الفرنسية تجاه المؤسسات الدينية:

تبيّن الوثائق الأرشيفية أنّ سلطات الاحتلال الفرنسي بمدينة المدية اتبعت منذ بدايات الاحتلال سياسة ممنهجة تهدف إلى إضعاف المؤسسات الدينية، وعلى رأسها المساجد، لما كانت تمثله من مراكز للمقاومة الروحية والاجتماعية فكانت المدية تضم أحد عشر مسجدا عند الاحتلال، لكن الإدارة الفرنسية سرعان ما صادرت معظمها، فأغلقت بعضها، وحوّلت بعضها الآخر إلى ثكنات عسكرية ومخازن للأسلحة أو مساكن للجنود، ولم يُترك للسكان سوى مسجد واحد مخصّص للعبادة.[27] وتشير التقارير الفرنسية إلى أن سكان المدية ظلّوا متمسّكين بعباداتهم رغم تقليص عدد المساجد، ممّا دفع السلطات إلى تحويل المزيد منها لأغراض استعمارية؛ فالمسجد الجامع صودر سنة 1843 وبعدها هُدم، والمسجد الحنفي أو مسجد مراد حُوّل إلى مخزن للحبوب، بينما حُوّل مسجد سيدي سليمان إلى مسرح في مطلع 1854 واسترجعه الأهالي بجلول 1883 في حين أن تقرير آخر يشير إلى تحويله إلى كنيسة كاثوليكية، وبخصوص المسجد الأحمر حوّل إلى الخدمة العسكرية ثمّ هُدم ولم يتبق منه إلا المئذنة.[28]

وتؤكد الرسوم الهندسية والمسوح التي أعدتها السلطات الفرنسية وجود أربعة مساجد فقط بقيت في الخدمة حتى منتصف القرن 19م، رغم أن المدية كانت تضم آلاف السكان. هذا التقليص المتعمّد للمؤسسات الدينية كان جزءًا من سياسة طمس الهوية الإسلامية، إلى جانب استغلال المساجد اقتصاديًا أو عسكريًا بدل الحفاظ على وظيفتها الدينية، وبحلول ستينيات القرن 19م كان معظم المساجد التاريخية للمدية إما مغلقًا، أو محولًا لوظائف أخرى، أو مهددًا بالهدم، في إطار سياسة واضحة لزعزعة البنية الدينية والثقافية لسكان المدية، وفي هذا الصدد يصرح رئيس المهندسين قائلا أن: **"سكان المدية يفتقرون إلى المنشآت الدينية"**، ويضيف: **"لم يتبق إلا مسجد واحد للعبادة الإسلامية"**.[29]

أما بالنسبة للزوايا فقد راقبتها وحدد مهام شيخوها وألزمتهم بالتعاون معها، يشير في هذا الصدد ليون كورتيز إلى وجود زاوية واحدة سنة 1909 في أحواز المدية وهي زاوية وزرة، والتي حددت بها الطقوس الدينية بمرتين فقط سنويا، بالإضافة إلى وجود مجموعة من المريدين الذين يتبعون الطريقة الزروقية أو الشاذولية أو العيساوية.[30] وقد تعرضت الزوايا هي الأخرى للتضييق والرقابة، فأصبحت مهمة معلم القرآن مراقبة ولا يسمح تقلد

هذا المنصب إلا برخصة من الإدارة الفرنسية، وذلك لصرف الأهالي عنها وتوجيههم نحو التعليم في المدارس الفرنسية، وما أكد هذا الطرح هو ما قاله لويس رين: **"كانت جهودنا منذ 1830 تهدف إلى الحد من التعليم القرآني واستبداله تدريجيا باللغة الفرنسية وتعليم يكون أكثر عقلانية"**.[31]

2.2 فرض التعليم الفرنسي:

بهدف عزل الأهالي عن المساجد والزوايا التي كانت كمنارات لبث روح المقاومة، وكمركز تعليمي وديني، شرعت إدارة الاحتلال في إنشاء المدارس لتعليم اللغة الفرنسية، وأوّل نوع من هذا المدارس أنشأ بموجب المرسوم الصادر في 30 سبتمبر 1850 والقاضي بتأسيس مدارس إسلامية حكومية سميت بـ Les Médersas في كل من المدن الثلاث: تلمسان، قسنطينة والمدية.[32] وقد شيدت مدرسة المدية بالقرب من المسجد لنفس السبب آنف الذكر، ثم لأسباب تتعلق بفقدان مكانتها العلمية والحضارية نتيجة احتلالها، تمّ نقل هذه المدرسة إلى البليدة سنة 1855 ثم إلى الجزائر العاصمة سنة 1859.[33] كان الهدف من إنشاء هذا النوع من المدارس هو إيجاد طبقة من المثقفين والمتفرنسين من الأهالي لتوظيفهم لدى المصالح الفرنسية كالقضاء الإسلامي، التعليم العام الفرنسي وفي المكاتب العربية. تضمن البرنامج الدراسي لهذه المدارس دروسا في الفقه والنحو والتوحيد بإشراف من طاقم يتكون من مدير وأستاذين ووقاف، ويشترط على التلاميذ المتمدرسين أن تكون أعمارهم تتراوح بين 15 و20 سنة، يتحصل العشر الأوائل فيها على منحة قدرها 100 فرنك، كما يدرس التلاميذ في السنوات الأربع الأولى القانون العام، الحساب، اللغات، الجغرافيا، علوم الطبيعة والكون، والشريعة الإسلامية، وفي المرحلة اللاحقة يفصّلون في تاريخ وحضارة فرنسا والقانون الفرنسي بالإضافة إلى قواعد اللغة العربية.[34]

أصدرت إدارة الاستعمار في 30 ديسمبر 1876 مرسوما نص على إنشاء معاهد فرنكو-عربية سميت بالمدارس العليا أو كوليج أو الليسيات Collège بلغ عددها 8 معاهد منها واحد في المدية، أُعتمد التعليم فيها باللغتين الفرنسية والعربية، وما ميّز هذا النوع من المدارس هو أنه غير مجاني ويحتوي على إقامة داخلية؛ وصل عدد تلاميذه إلى 166 كإحصاء أوّلي سنة 1876 تشكّل أغلبهم من المستوطنين، وتطور عدد التلاميذ سنة 1928 إلى 413 منهم 12 تلميذا من الأهالي.[35] إضافة إلى المعاهد، أسست مدارس ابتدائية خاصة بالبنات في مستوطنة لودي وأخرى بالذكور في الداميات، وصدر قرار بنائها سنة 1849، وغرفة لجوء خاصة بالبنات (ابتدائية تعشاش بركان حاليا)، كما بنيت أيضا مدرسة ابتدائية في محيط المدينة سنة 1847. وبحلول سنة 1883 وسّع قانون التعليم الفرنسي فأنشأت العديد من المدارس الابتدائية إما مختلطة أو عربية، ثمّ مع مطلق القرن العشرين فتح معهد خاص بالبنات تحديدا في 1908 (متوسطة أرملة كاديك حاليا).[36]

بالإضافة إلى المدارس سابقة الذكر، استحدث أنوعا أخرى من المدارس بإشراف من الجمعيات الخيرية والجمعيات الدينية، أولاها هي غرف اللجوء التي فتحت أبوابها في بن شكاو سنة 1896 وعرفت بمدرسة روديل Ecole Roudil نسبة إلى مؤسسها الأب روديل، احضنت هذه المدرسة الأطفال والشباب ثم تغيرت إلى كونها مدرسة فلاحية. أما الصنف الثاني هو مدارس الأمومة Ecoles Maternelles يشرف عليها كذلك رجال الدين، كالتي أنشأت بالمدية والتي ليس لدينا معلومات تخص مكان تواجدها أو احصائيات حول عدد تلامذتها.[37] واختص النوع الثالث منها في إنشاء طبقة من العمال في مجال الحرف والتطريز وتكوين الشباب صناعيا سميت بالمدارس المهنية، منها التي فتحت بالمدية وبمستوطنة لودي أواخر القرن 19م.[38]

لم يكن هدف إدارة الاحتلال من إنشاء تلك المدارس هو تعليم الأهالي، بقدر ما كان هو عزلهم عن التعليم المسجدي والقرآني، وتكوين طبقة من الشباب تعتز بالثقافة الفرنسية، والدليل على ذلك هو اقدامها على مصادرة أوقاف المساجد، ومنع فتح المدارس العربية دون رخصة وفق مرسوم 24 ديسمبر 1904، والذي تلاه إصدار العديد من المراسيم والقرارات التي تستهدف اللغة والانتماء العربي، لعلّ أشنعها على الإطلاق هو مرسوم 08 مارس 1938 الذي اعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وذلك كنوع من التضييق على نشاط المدارس العربية الحرة ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.[39] أدى كل هذا إلى انتشار الجهل والأمية بين الجزائريين، فصرح فورمسترو سنة 1880 قائلا: **"لقد ضاع التعليم العام كليا"**.[40] ويعلق سعد الله على أهداف التعليم الفرنسي بقوله أن هذا الأخير اتّصف بطابع التحدي الديني واللغوي والحضاري وبذلك يتيح لها انتهاك كل المحرمات والدوس على المقدسات.[41]

3.2 العمارة الكولونيالية.

لأن العمران يعكس ثقافة الشعوب وهو من إرثها الثقافي، فإن إدارة الاحتلال لم تغفل عليه هو الآخر فراحت تبني المستوطنات والمنشآت وفق ثقافتها وطرازها ونمطها الأوروبي ضاربة بيد من حديد الطابع الإسلامي والعربي، فبعد احتلال المدية باشرت في جلب المهندسين حتى يتم تخطيطها من جديد بعد هدم جزء كبير من قصبتها ومساجدها وأسوارها، حتى أنها غيرت مواقع الأبواب وغيرت تسمياتها، فاقترح رئيس المهندسين ديكامب Du Camp عدة مشاريع تخطيطية، تضمن المشروع الأول 1843 تقسيمها إلى قسم عسكري وقسم مدني، والمشروع الثاني 1844 تضمن إنشاء حي أوروبي أمام الحي العثماني وتفصل بينهما ساحة عمومية، فيما صادق وزير الحربية على المشروع الثالث 1846 الذي اقترح تقسيمها إلى ثلاث أقسام: المدينة العسكرية، وتحتها المدينة القديمة ثم ساحة كبيرة تضم كنيسة ونافورة ومرافق إدارية وبعدها المستوطنة الأوروبية.[42]

بعد استكمال الأشغال في المدية تزايد توافد المستوطنين نحوها وتوسع القسم الأوروبي بشكل كبير مما أسفر عنه بناء مستوطنتين جديدتين وهما مستوطنة لودي ومستوطنة داميات، والتي ضمتا منازلا فردية ذات طابع واحد تحيط بها البساتين والحقول خاصة من صنف الكروم، في هذا الصدد يؤكد كورتيز قائلا: "تزايد عدد المستوطنين بالمنطقة ... فالمنتوجان اللذان يعطيان نتائج جيدة بالمدية هما الحبوب من طرف الأهالي والكروم من طرف الكولون".[43] وحسب إحصاء 1851 فإنه بني 30 منزلا بالمدية بقيمة 70 ألف فرنك بالإضافة إلى 4 اسطبلات و 9 آبار، ويعلق جول دوفال وهو قاضي بالمجلس العام لنيابة عمالة وهران، على العمران قائلا: **"أعيد بناء المدية على الطراز الفرنسي، بشوارع وساحات جميلة مزينة بالأشجار تنتشر فيها الثكنات، والمستشفى العسكري، وقناة مائية قديمة .. تشهد المدينة مشاريع صناعية تضم مصانعا للطوب والجعة وأفران الجير ومصانع الجبس".**[44]

ومن نماذج العمارة الفرنسية في المدينة، كل من: المستشفى العسكري تم الانتهاء من أشغال البناء به سنة 1849، القلعة أو الثكنة العسكرية، البوابات مثل باب لودي وباب الأغواط التي كانت تسمى سابقا بباب الأقواس وباب البركاني على الترتيب، المباني الإدارية في الساحة الجمهورية، كمبنى البلدية 1848، مبنى المالية والبريد 1846، الفندق، الساحات وهي: ساحة الجمهورية، ساحة الحرية، ساحة هالي، والسوق الأوروبي المغطى، الكنائس والمعابد وغيرها من المعالم التي لاتزال جلها قائمة إلى يومنا هذا.[45]

3. دور المؤسسات الدينية والثقافية بالمدية في مواجهة السياسة الفرنسية.

رغم التضييق الذي فرض على الأهالي إلا أنهم حاولوا بشتى الطرق مواجهة السياسة الفرنسية وبرزت هذه المحاولات بشكل أكثر تنظيما مع مطلع القرن 20م من خلال تأسيس الجمعيات والنوادي، كتابة العرائض، الكتابة الصحفية، الكشافة، ... فيما عرف بالمقاومة الثقافية، وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه.

1.3. جهود المؤسسات الثقافية.

شكلت النوادي والجمعيات الثقافية أهم وسيلة لمواجهة سياسة الاحتلال، كونها كانت تبث روح المقاومة والتشبث بالأصالة والهوية الوطنية فقد أوجد الجزائريون الجمعيات والنوادي الثقافية والصحافة لإنقاذ الأهالي من الانحطاط الذي زرع الاستعمار بذوره، ومن أبرز تلك الجمعيات في المدية هي جمعية الإرشاد التي سبق وأشرنا إليها، حيث قامت بفتح مدرسة عربية حرة لتعليم أبناء المدينة ولمجابهة سياسة الفرنسة والتنصير، واحتضنت الجمعية عرضا مسرحيا يوم 10 جوان 1947 حضره عدد كبير من أبناء المدية ومثلت فيه الفرقة المسرحية للبليدة، مسرحية بعنوان "الخليفة هارون الرشيد" تكونت من ثلاث فصول، وألقى خلال هذه السهرة كل من رئيس الجمعية السيد محمد بن حفري والشيخ فضيل إسكندر كلمة حثّا فيها الشباب على التعليم العربي، وقرأ خلال العرض تلاميذ مدرسة الإرشاد آيات من القرآن الكريم.[46]

بالإضافة إلى الجمعيات، لعبت النوادي هي الأخرى دورا كبيرا في المقاومة، فأقبل عليها الشباب المتحمس للمقاومة والمتشبع بالقيم الوطنية، فكان يتم الاجتماع والتلاقي بين أعضاءها في المقاهي، وعلى الرغم من اختلاف الأدوار بين المقهى والنادي إلاّ أن هدفهما ومسارهما في النضال كان مشتركا، فكان يقصد المقهى الأدباء والشعراء، من بينهم شاعر وأديب المدية "محمد دراجي"، إذ يحفظ لنا تاريخ نادي مولودية المدية، افتتاحه

"لمقهى النادي الثقافي" سنة 1936 وهو ملك للحاج سليمان علي قاسم، وألقى عند افتتاحه، الشيخ فضيل إسكندر قصيدته المشهورة، ممّا جاء فيها: **وَاللهِ لَنْ تَنَالَ العُلاَ إلاَّ بِأَرْبَعَةٍ، بِالحَزْمِ، وَالعَزْمِ، وَالآدَابِ، وَالسَّهَرِ**، ثمّ ذاع صيت المقهى وزاره محمد دراجي والشيخ مصطفى فخار والشيخ ابن باديس والطيب العقبي وغيرهم، هذا يبرز لنا الدور الذي لعبه النادي والمقهى في مناقشة مختلف القضايا والمسائل الثقافية والدينية وحتى السياسة، في فترة حرجة عرفت الرقابة والتضييق الاستعماري.[47]

لعبت الحركة الكشفية دورا كبيرا في المقاومة الثقافية وذلك من خلال تمرير المسائل والقضايا التي تهم الجزائريين عبر نشاطاتها الثقافية، كالعروض المسرحية والحفلات الدينية والثقافية، فكانت تنتقد إدارة الاحتلال، وتدفع بالشباب إلى الالتحاق بصفوفها، فالكثير من السياسيين والعسكريين الذين التحقوا بالثورة كانوا قد مروا على الكشافة الإسلامية، وامتدّ نشاط فوج الكشافة المدانية إلى منطقتي بوسعادة والجلفة وأعد جيلا من الناشئة وغرس فيهم القيم الإسلامية الفضيلة.[48] واعتبر المسرح أيضا قلعة من قلاع النضال الثقافي، عبر عروضه التمثيلية ولا يقل دوره أهمية عن الدور الذي لعبته الجمعيات، فكان يمرر رسائله السياسية والتوعوية دون اصطدام مباشر مع إدارة الاحتلال، حسب ما أشار إله رائده المدعو علالو: "**كانت هناك بعض الإشارات السياسية في المسرح الذي كنا نقدمه**". ومن العروض التي ألهمت الشباب هي مسرحيات: "سبيل التاج" و"غفران الأمير" و"عاقبة البغي"، التي حاول من خلالها الأمير خالد اتخاذ المسرح كسلاح ثقافي يحمل بين طياته المضامين الوطنية.[49]

2.3. المؤسسات الدينية في مواجهة التنصير.

على الرغم من التضييق الاستعماري على المؤسسات الدينية وعلى رأسها المساجد، إلا أن مساجد المدية رغم قلتها، كانت تلعب دورا كبيرا في مجابهة سياسة التنصير، وذلك من خلال عقد الجلسات والمجالس العلمية لتدارس الشؤون التي تهمهم، وتقديم الإرشاد والوعظ، وكذا تعليم الأطفال القرآن الكريم، والقراءة، والكتابة. وحين كان المسجد الصرح الديني الأول فإن أبناء وأعيان المدية وعلى رأسهم المحجوب اسطمبولي وبن دالي إبراهم، عملوا على تشييد مساجد جديدة لتسهيل العبادة على الأهالي، ففي سنة 1932 بني أول مسجد خلال الفترة الاستعمارية المعروف باسم المسجد الجديد أو المسجد التحتاني، وأوكلت مهمة رعايته للشيخ بن دالي، وبني مسجد آخر في عين الذهب ترأسه الشيخ بن هدّة المنور. في حين أن المجلس العلمي تداول على رئاسته العديد من المشايخ والقضاة والفقهاء من أمثال: عائلة فخار، بوعبد الله بن منصور، مولود بن محمد بن أحمد خوجة، محمد بن غربية، ... وغيرهم.[50]

عملت الزوايا على تدجين قوى المقاومة فكانت قلعة للمقاومة الفكرية والمسلحة، وسعت جليا على تعليم مبادئ اللغة والدين والفقه والتفسير وحتى الحساب والطب والفلك، رغم محاولات الاستعمار لاستمالتها إلى صفه حين تنبهت إلى الدور الذي كانت تلعبه في تكوين الناشئة وتماسك المجتمع الجزائري من خلال حل المسائل وإصدار الفتاوي، والسعي للأعمال الخيرية.[51] يقول المدني في هذا الصدد: "**استطاعت الطرق الصوفية أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات ... يقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال ... لولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها... لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين**".[52]

وعن زوايا المدية رغم قلتها فإنها انتهجت نفس المنحى في التعليم والتربية كمثال زاوية العيساوية بوزرة التي كانت كمنارة علم يقصدها الطلاب من كل صوب، فعلى غرار تحفيظها للقرآن الكريم والعلوم المرتبطة به، فإنها كانت تعلم أيضا الطب والصيدلة والفلاحة والبيطرة وغيرها،[53] كما عمل أبناء الشيخ امحمد بن عيسى الثلاث على التعريف بالزاوية خارج وزرة، فأسسوا زوايا على الطريقة العيساوية في كل من: بن شكاو، البرواقية ودلس، وأصبح يتبعهم 11 مقدما و750 مريدا.[54] وفيما يخصّ عدد الزوايا مع أواخر القرن 19م فقد أحصى لويس رين سنة 1884م وجود 9613 ساكنا بالمدية من المسلمين ويُحصي كذلك عدد الزّوايا والطرق بنيابة عمالة المدية نلخصها في الجدول الموالي:[55]

المنطقة	الطريقة	عدد الزوايا	عدد مقدّميها	عدد المريدين	مجموع الأتباع
المدية	القادرية	01	01	19	104
	الشادولية	01	01	25	
	الطيبية	/	01	15	
	التيجانية	/	01	20	
	الرحمانية	/	01	20	

3.3 المدارس العربية الحرة في التصدي للفرنسة.

يعرّف سعد الله المدارس العربية الحرة على أنها مؤسسات تعليمية أنشئت بالجزائر مع مطلع القرن 20م، بدعم من الأفراد والجمعيات في الأرياف والمدن، تعمل على تحفيظ القرآن للناشئة وتضيف عليه موادا أخرى، ثم أصبح يطلق عليها اسم المدارس الحديثة أو العصرية،[56] تطور نشاط هذه المدارس بعد عام 1920 وساهمت الجمعيات في تمويلها واشترطت إدارة الاحتلال الحصول على شهادة تؤهل المعلم على التدريس بها إلى أن ألغي هذا الشرط سنة 1938.[57] ونتيجة لسياسة الفرنسة حاول أهالي المدية استرجاع مسيد سيدي سليمان المصادر من طرف الاحتلال، وتم ذلك فعلا سنة 1937 والتزم مسيروها بتعليم وتحفيظ القرآن للأطفال ظاهريا حتى يتفادوا غلقها ويلتزموا بالقانون الفرنسي، أما في باطنها فكانت تنشر القيم الإسلامية وتدرس ما تعلق بالجانبين العلمي والاجتماعي بين الناشئة وحينما تم اكتشاف أمرها صدر قرار غلقها سنة 1944 وغادر معلمها الشيخ بن تشيكو إلى الجزائر.[58]

أعلنت جمعية الإرشاد عن تأسيس مدرسة عربية حرة سميت بمدرسة الإرشاد، ثم تغير اسمها إلى مدرسة الزوبيرية نسبة للشيخ امحمد الزوبير الذي تبرع من أجل بنائها، وقد أعلن عنها في اجتماع في قاعة السينما ركس Rex يوم 14 ديسمبر 1947 ضم مجموعة من الشيوخ من بينهم الشيخ مصطفى فخار، الشيخ فضيل إسكندر والشيخ بن دالي، وافقت إدارة الاحتلال على فتح هذه المدرسة سنة 1948 ومولتها بمنحة قدرها 10 ألاف فرنك، تكون أعضائها من مجموعة من المعلمين والأعيان وتولها شؤونها رحماني إبراهيم والأمين العام مماش علي، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من أبرزهم: حاج علي طاهر، ولد رامول أحمد، بن زعميط عبد القادر، بوشنافة نورالدين، ...[59]

إضافة إلى مدرسة الزوبيرية أو الإرشاد، أحصى التقرير السّابق لريكو وجود 109 مدرسة تقليدية (الكتاتيب) في المدية يدرّس بها 2311 تلميذا منهم 100 إناث، نلخصّها في الجدول التالي:[60]

المنطقة	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلاميذ الذكور	عدد التلاميذ الإناث
المدية	18	22	660	85
داميات	09	09	104	////
لودي	06	06	106	////

أشار توفيق المدني إلى مدرسة الزوبيرية قائلا: "**بالمدية نهضة إسلامية عربية طيبة... وهم الآن بصدد تأسيس مدرسة عربية أعانهم الله وأيدهم**".[61] تمثل برنامجها في تعليم أبناء المدية علوم الدين، الحساب، الهندسة، علوم الطبيعة والتاريخ الإسلامي، ومن معلميها: حاج أحمد حمدي، مختار مقدم، بلقاسم قندوز وغيرهم،[62] وتوافد عدد كبير من التلاميذ على هذه المدرسة من الجنسين وصل إلى 300 تلميذ فاضطر مسيروها إلى توسعتها وتخصيص قاعتين للبنات فأصبحت تتشكل من خمس قاعات للتدريس، وتطور نشاطها فعقدت الاجتماعات ولقاءات النشطاء السياسيين والاصلاحيين ونظمت العروض المسرحية بالتنسيق مع جمعية الإرشاد.[63]

4.3 جهود أبناء المدية في مواجهة الاحتلال.

حمل أبناء المدية وأعيانها مسؤولية إعداد الأطفال والشباب، وشحن الهمم، وتنشيط الحركة الثقافية والفكرية كمحاولة منهم لمواجهة السياسة الاستعمارية، من هؤلاء ذكر "الشيخ فضيل إسكندر" الذي اهتم بالكشافة والفرقة المسرحية والجمعيات وحركة الإصلاح في المدية، فترك عدة آثار منها 81 حديثا شريفا، وعيّن كرئيس لفرع جمعية العلماء المسلمين بمكتب المدية سنة 1933، وعضوا في مجلس الفتوى، فحارب البدع والخرافات وعقد مجالس الذكر وترأس المجالس العلمية، وساهم في تشييد كل من المسجد الجديد ومدرسة الإرشاد، وناظر اليهود في مختلف القضايا، كما راسل شيوخ الأزهر لمناقشة بعض المسائل الدينية.[64]

برزت شخصيات المدية في ميدان التأليف والنشر مع مطلع القرن 20م، ومن الشخصيات الثقافية التي اهتمت بالتأليف: "المحبوب اسطمبولي" رائد المسرح المداني فألف كتابا حول قواعد النحو ضمّ 200 بيت شعر بعنوان "منقذ الصبيان من عثرة اللسان"، وله عدة كتابات أخرى، وكذلك فعل "العلامة ابن شنب" الذي سعى إلى إحياء التراث وتحقيق المخطوطات الإسلامية عبر كتاباته في المجلة الإفريقية فشارك بما يقارب العشرين مقالا، واهتم أيضا بإعداد وتعليم الأطفال وخصهم في مؤلفاته وبحوثه ومقالاته، منها المقال المنشور سنة 1901 تحت عنوان "رسالة في تعليم الأطفال لأبو حامد الغزالي"، وكتابه الصادر سنة 1922 بعنوان "الألفاظ التركية والفارسية المتبقية في اللهجة الجزائرية" الذي نال به شهادة الدكتوراه.[65]

اهتم كذلك أبناء المدية بالنشاط والكتابة الصحفية وراسلوا "جريدة البصائر" لسان حال جمعية العلماء المسلمين، ومن الأقلام المدانية التي كتبت فيها "فضيل إسكندر" الذي كتب مقالا سنة 1936 يحث فيه أهل المدية على تعليم أبنائهم للخروج من الجهل والظلمات،[66] إضافة إلى عدة أعضاء أحصاهم لنا تقرير أرشيفي وهم: قويدري محمد، عبد الوهاب بن محمد، ميسومي محمد، زيوان عدة بن قانة، وفخار عبد الله.[67] ومن الجرائد الأخرى التي نقلت أخبار المدية وكتب فيها أبناها هي "جريدة الدفاع" التي راسلها السيد عبد المؤمن في نداء خصه حول التضييق الممارس على طلبه العلم في المساجد، الذين لم يجدوا حلا إلا باللجوء إلى غرف الحمامات.[68]

وتناول عرض أوضاع المدية أيضا طلبة العلم المدانية في قسنطينة فاستنجدوا بجريدة البصائر سنة 1936، وراسلوا عبرها الشيخ امحمد الزوبير ومحمد علجي المدعو محمد الشامي، ومما جاء في رسالتهم: "...**كل ذلك صد الجمعية عن عملها الشريف الذي هو إعانة طلبة العلم الفقراء في غربتهم العلمية... فنحن اليوم نجدد رغبتنا وطلبنا ونبعث صرختنا من أعماق قلوبنا إلى أهالي بلدتنا النبيلة، سيما السيد محمد زوبير وأخيه السيد محمد الشامي والسيد محمود هجرسي وغيرهم**".[69] إلى جانب ذلك وجّه أبناء المدية العرائض إلى سلطة الاحتلال، كعريضة 14 ديسمبر 1911 التي حملت توقيع 340 شخص وهي شكوى حول الممارسات الفرنسية المرتبطة بالدين والعقيدة وقانون التجنيد الإجباري، وحملت معاناة أهالي المدية نتيجة التضييق الاستعماري على نشاط المدارس القرآنية، وعرضت قضية منع القضاة من الفصل في النزاعات الخاصة بشؤون المسلمين، وهذا ما يوحي لنا اهتمامهم البالغ بشتى مناحي الحياة الدينية مستخدمين مختلف وسائل المقاومة الثقافية.[70]

الخاتمة:

تبين من خلال تتبع مظاهر الحياة الثقافية في مدينة المدية خلال الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين أنها لم تكن مجرد فضاء جغرافي خاضع للسياسات الاستعمارية، بل شكلت مجالا فعالا للمقاومة الهادئة التي اتخذت من الثقافة وسيلة للحفاظ على الهوية والدفاع عن المقومات الدينية والحضارية للمجتمع، فقد تمكن الأهالي من خلال نشاطهم في الجمعيات والنوادي الدينية التعليمية، والصحافة المحلية، والحركة المسرحية والكشفية، أن يواجهوا أهداف الاستعمار الرامية إلى طمس الشخصية العربية الإسلامية، وأن يعززوا روح الانتماء الوطني وهكذا تحولت الحياة الثقافية إلى مجال للمقاومة السلمية التي مهدت الطريق لبروز الوعي الوطني الذي أسس لاحقا للثورة الجزائرية المجيدة.

توصي هذه الدراسة بضرورة توثيق التراث الثقافي المحلي لمدينة المدية وتشجيع الدراسات الميدانية والأرشيفية التي تكشف المزيد من الجوانب المهملة في حياة المدينة الثقافية مما يعزز الوعي التاريخي لدى الأجيال الجديدة.

الهوامش:

[1] Jean MIRANTE, **La France et les œuvres indigènes en Algérie**, imprimerie d'A. Pigelet & Orléans, Alger, p p 32, 33.

[2] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830–1954)**، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص199.

[3] أحمد بيّوض، **المسرح الجزائري نشأته وتطوره**، دار غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 26.

[4] GGA, Renseignements d'ARCHIVES**, concernant les membres de la société "EL IRCHAD"**.

[5] مديرية الثقافة لولاية المدية، **المسيرة التاريخية للحركة الرياضية بالمدية**، "مجلة أشير"، العدد 3–4، دار شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، مارس 2005م، ص 24.

[6] **المدية إلهام الماضي وإشراق الحاضر**، "منشورات ولاية المدية بالتنسيق مع مديرية الثقافة"، دار شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، 2012، ص ص80–81.

[7] **محمد بوراس (1908–1941)م**: من مواليد بلدة مليانة 1908م بها نشأ وتربى وتعلم في الكتاتيب القرآنية والمدرسة الابتدائية الفرنسية، أنشأ أوّل فوج للكشافة بها سنة 1930م ثمّ أنشأ "فوج الفلاح". أعدمته السلطات الفرنسية 1941م بدعوى اتصاله بالعدو ومحاولته تفجير الثورة. ينظر: محمد الصالح رمضان، **تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية**، "مجلة الثقافة"، العدد 70، الجزائر، 1982، ص 61.

[8] أبو عمران الشيخ، محمد الجيجلي، **الكشافة الإسلامية الجزائرية (1935–1955)م**، طبعة خاصة، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص 17.

[9] https://2u.pw/g1Qkr2Xa, le 05 février 2024, 16:38, https://www.youtube.com

[10] https://2u.pw/ytTk3GR3, le 02 février 2024, 14:07, https://www.oltmedea.dz/fidah/

[11] Olivier RICAUD, **Monographie politique de l'arrondissement de Médéa**, Médéa, 14 avril 1958, p37.

[12] www.gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France.

[13] سيف الإسلام الزبير، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص ص 83، 84.

[14] https://n9.cl/t3bdk, le 04 février 2024, 17:42, https://gallica.bnf.fr/.

[15] https://n9.cl/605ke2, le 04 février 2024, 18:03, https://catalogue.bpi.fr/

[16] Journal de: **Le Petit Médéen**, N° 01, le dimanche 19 juillet 1891, Alger, p 01.

[17] Journal de: **Le courrier de Médéa**, N° 01, le dimanche 31 mai 1898, Blida-Algérie, p 01.

[18] رشيد مياد، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر وانعكاساتها على الحركة الوطنية وتفجير الثورة (1900–1954)م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، 2015/2014م، ص 221.

[19] **محي الدين بشطارزي (1897–1986)م**: ولد بالقصبة بالجزائر في عائلة من أصل تركي بدأ التجويد والمديح سنة 1910م في الجزائر والبليدة والمدية، ثمّ انضمّ إلى جمعية المطربية سنة 1911م وعمل في مجال الغناء والمسرح، قدم ما يزيد عن مئة عمل مسرحي. يُنظر: بيوض، المرجع السابق، ص ص 60، 61.

[20] **المدية عروس الجبال**، "منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية"، مؤسسة شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، 2010، ص 53.

[21] إبراهيم بن ويس، **المثقفون الجزائريون من خلال المجلة الإفريقية (1856–1962)م**، مذكرة ماجستير في علم المكتبات والعلوم الوثائقية، جامعة وهران–الجزائر، 2013/2012م، ص 107.

[22] Henri Massé, **Les études arabes en Algérie (1830-1930)**, "Revue Africaine", V74, Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1933, p 243.

[23] عبد العزيز خليل الشرقي، **سير أعلام المدية**، تق: محمد الهادي الحسني، دار فليتس للنشر، المدية–الجزائر، 2023م، ص 24.

[24] أحمد طالب الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي (1954–1964)**، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص 309.

[25] خدوسي وآخرون، موسوعة العلماء **والأدباء الجزائريين**، تق: محمد الأمين بلغيث، ج1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014م، ص 233.

[26] محمد عبد اللطيف، محمد بوكراس، **المدية كنوز ورموز**، "منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية"، مؤسسة شيكو للطبع، المدية–الجزائر، (د،س،ط)، ص 35.

[27] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830–1954)**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 250.

[28] مصطفى بن حموش، وهيبة خليل، **تاريخ وعمران المدية**، "صفحات من تاريخ المدية بين القديم والحديث، سلسلة منشورات مخبر الدراسات التاريخية عبر العصور، الجزائر، 2023، ص 245.

[29] Xavier Malverti, Aleth Picard, **Les villes coloniales fondées entre (1830-1870) en Algérie**, tome III, bureau de recherche architecturale, Paris, Janvier, 1990, p 102.

[30] Lion Cortès, **Monographie de Médéa**, imprimerie Algérienne, Alger, 1909, p p 58, 59.

[31] Louis RINN, **Marabouts et khouan : étude sur l'islam en Algérie**, libraire et imprimerie de Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p 05.
[32] Ernest MERCIER, **L'Algérie en 1880**, éditeur de Challamel Ainé, Paris, 1880, p 181.
[33] Charles JANIER, **Les Médersas Algériennes de 1850 à 1960**, France, Juin 2010, p 12.
[34] أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية، الجزائر، 1931، ص ص 300،301.
[35] محمد بوطيبي، **التعليم في المدية وأريافها خلال الفترة الاستعمارية (1830–1950) م**، "مجلة تاريخية رؤى للأبحاث والدراسات المتوسطية"، المجلد01، العدد01، الجزائر، 01 جوان 2020م، ص ص 191، 192.
[36] ANOM, GGA, 3F19, Conseiller rapporteur de Linas, dossier N°1910, **Travaux à exécuter à l'école communale de Médéah**, le 03 septembre 1847, p 385.
[37] بوطيبي، المرجع السابق، ص ص 193، 194.
[38] Mirante, op cit, p 71.
[39] يحي بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830–1954)م**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص34.
[40] Eugéne Fourmestraux, **L'instruction publique en Algérie (1830-1880)**, éditeur de Challamel Ainé, Paris, 1880, p 36.
[41] أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830–1954)**، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 287.
[42] Malverti, picard, op cit, p (97-100).
[43] Cortès, op cit, p 63.
[44] Jules Duval, **L'Algérie : tableau historique, descriptif et statistique**, Libraire de Hachette et C[le], Paris, 1859, p 207.
[45] بن حموش، خليل، المرجع السابق، ص (230–233).
[46] GGA, **commissariat de police se Médéa, Soirée orientale**, Médéa, 11 juin 1947.
[47] رشيد الذوادي، **مقهى الأدباء في الوطن العربي**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص ص 105، 106.
[48] رامي سيدي محمد، الكشافة الإسلامية في الغرب الجزائري بين الاستعداد، الانطلاقة، والمشاركة في الثورة التحريرية، "مجلة المعيار"، المجلد 9، العدد 1، الجزائر، 2018، ص 272.
[49] أحسن ثليلاني، **المسرح الجزائري والثورة التحريرية**، دار الساحل، الجزائر، 2019م، ص 19.
[50] Ricaud, op cit, p p 7, 8.
[51] عبد العزيز شهبي، **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب، الجزائر، 2007م، ص 43.
[52] المدني، المصدر السابق، ص 134.
[53] عبد القادر بلعربي، **التطور التاريخي للطريقة العيساوية وانتشارها في الجزائر العثمانية**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس، الجزائر، 2015/2014م، ص 81.
[54] Rinn, op cit, p 333.
[55]- Rinn, op.cit, p 527.
[56] سعد الله، المرجع السابق، ج3، ص 238.
[57] المدني، المصدر السابق، ص 240.
[58] يمينة شيكو، **التعليم في المدارس العربية الحرّة وأبعاده الثورية في مدينة المدية في عهد الاحتلال الفرنسي**، "مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا"، المجلد 04، العدد 07، الجزائر، ديسمبر 2013م، ص 267.
[59] GGA, Rapport N°233 de police des renseignements généraux, **A/S de la Médersas de Médéa**, Médéah, 8 juin 1948.
[60] Ricaud, op cit, p 23.
[61] المدني، المصدر السابق، ص 237.
[62] شيكو، المرجع السابق، ص 269.
[63] GGA, **commissariat de police se Médéa, Réunion à la Médersa "El Irchad"**, Médéa, 17 janvier 1947.

[64] توفيق عبد الصمد مزاري، **دور الزوايا التعليمي –زاوية الوزانة نموذجا–**، "أعمال الملتقى الأول حول تاريخ تابلاط وما جاورها"، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2011م، ص ص 15، 16.

[65] عبد الحميد عومري، **الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880–1914) م**، أطروحة شهادة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، جامعة الجيلالي ليابس– سيدي بلعباس، الجزائر، 2017م، ص 280.

[66] **جريدة البصائر**، السنة الأولى، العدد 46، الجزائر، 4 ديسمبر 1936، ص 8.

[67] GGA, Rapport N°961, **Les membres de Médéa dans le journal "El Bassair" en 1937**, Médéa, 06 octobre 1939.

[68] **Journal la défense**, 3eme année, N°144, Alger, 17 juillet 1936, p 5.

[69] الطيب العقبي، **نداء تلاميذ بلدة المدية إلى آبائهم**، "جريدة البصائر"، المصدر السابق، ص 7.

[70] جمال قنان، **نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830.1919)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص ص (278–282).

قائمة المصادر والمراجع.

أ- أرشيف ما وراء البحار:

- ANOM, GGA, 3F19, Conseiller rapporteur de Linas, dossier N°1910, **Travaux à exécuter à l'école communale de Médéah**, le 03 septembre 1847.

ب- أرشيف مخبر الدراسات التاريخية عبر العصور:

1. GGA, **commissariat de police se Médéa, Réunion à la Médersa "El Irchad"**, Médéa, 17 janvier 1947.
2. GGA, **commissariat de police se Médéa, Soirée orientale**, Médéa, 11 juin 1947.
3. GGA, Rapport N°233 de police des renseignements généraux, **A/S de la Médersas de Médéa**, Médéah, 8 juin 1948.
4. GGA, Rapport N°961, **Les membres de Médéa dans le journal "El Bassair" en 1937**, Médéa, 06 octobre 1939.
5. GGA, Renseignements d'ARCHIVES**, concernant les membres de la société "EL IRCHAD"**.
6. RICAUD Olivier, **Monographie politique de l'arrondissement de Médéa**, Médéa, 14 avril 1958.

ج- المصادر بالعربية:

1. المدني أحمد توفيق، **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية، الجزائر، 1931.
2. **جريدة البصائر**، السنة الأولى، العدد 46، الجزائر، 4 ديسمبر 1936.

د- المصادر بالأجنبية:

1. Cortès Lion, **Monographie de Médéa**, imprimerie Algérienne, Alger, 1909.
2. DUVAL Jules, **L'Algérie : tableau historique, descriptif et statistique**, Libraire de Hachette et C^{le}, Paris, 1859
3. Fourmestraux Eugéne, **L'instruction publique en Algérie (1830-1880)**, éditeur de Challamel Ainé, Paris, 1880.
4. Journal de: **Le courrier de Médéa**, N° 01, le dimanche 31 mai 1898, Blida-Algérie.
5. Journal de: **Le Petit Médéen**, N° 01, le dimanche 19 juillet 1891, Alger.
6. **Journal la défense**, 3eme année, N°144, Alger, 17 juillet 1936.
7. Massé Henri, **Les études arabes en Algérie (1830-1930)**, "Revue Africaine", V74, Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1933.
8. MERCIER Ernest, **L'Algérie en 1880**, éditeur de Challamel Ainé, Paris, 1880.
9. MIRANTE Jean, **La France et les œuvres indigènes en Algérie**, imprimerie d'A.Pigelet & Orléans, Alger.
10. RINN Louis, **Marabouts et khouan : étude sur l'islam en Algérie**, libraire et imprimerie de Adolphe Jourdan, Alger, 1884.

هـ- المراجع بالعربية:

1. الإبراهيمي أحمد طالب، **آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي (1954–1964)**، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
2. بوعزيز يحي، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية (1830–1954)م**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
3. بيّوض أحمد، **المسرح الجزائري نشأته وتطوره**، دار غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
4. ثليلاني أحسن، **المسرح الجزائري والثورة التحريرية**، دار الساحل، الجزائر، 2019م.
5. خدوسي وآخرون، **موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين**، تق: محمد الأمين بلغيث، ج1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014م.
6. خليل الشرقي عبد العزيز، **سير أعلام المدية**، تق: محمد الهادي الحسني، دار فليتس للنشر، المدية–الجزائر، 2023م.
7. الذوادي رشيد، **مقهى الأدباء في الوطن العربي**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995.
8. الزبير سيف الإسلام، **تاريخ الصحافة في الجزائر**، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
9. سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي (1830–1954)**، ج1، ج3، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
10. شهبي عبد العزيز، **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب، الجزائر، 2007م.
11. الشيخ أبو عمران، الجيجلي محمد، **الكشافة الإسلامية الجزائرية (1935–1955)م**، طبعة خاصة، دار الأمة، الجزائر، 2008م.
12. قنان جمال، **نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830.1919)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009.
13. مؤلف جماعي، **صفحات من تاريخ المدية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة**، سلسلة منشورات مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، الجزائر، 2022.

و– المراجع بالأجنبية:

1. JANIER Charles, **Les Médersas Algériennes de 1850 à 1960**, France, Juin 2010.
2. Malverti Xavier, Picard Aleth, **Les villes coloniales fondées entre (1830-1870) en Algérie**, tome III, bureau de recherche architecturale, Paris, Janvier, 1990

ز– رسائل الماجستير والدكتوراه:

1. بلعربي عبد القادر، **التطور التاريخي للطريقة العيساوية وإنتشارها في الجزائر العثمانية**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس، الجزائر، 2015/2014م.
2. بن ويس إبراهيم، **المثقفون الجزائريون من خلال المجلة الإفريقية (1856–1962)م**، مذكرة ماجستير في علم المكتبات والعلوم الوثائقية، جامعة وهران–الجزائر، 2013/2012م.
3. عومري عبد الحميد، **الحياة الثقافية والفكرية في الجزائر (1880–1914) م**، أطروحة شهادة دكتوراه في تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، جامعة الجيلالي ليابس–سيدي بلعباس، الجزائر، 2017م.
4. مياد رشيد، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر وانعكاساتها على الحركة الوطنية وتفجير الثورة (1900–1954)م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، 2015/2014م.

ح– المقالات المنشورة:

1. بن حموش مصطفى، خليل وهيبة، **تاريخ وعمران المدية**، "صفحات من تاريخ المدية خلال الفترة الحديثة والمعاصرة"، سلسلة منشورات مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، الجزائر، 2022.

2. بوطيبي محمد، **التعليم في المدية وأريافها خلال الفترة الاستعمارية (1830–1950) م**، "مجلة تاريخية رؤى للأبحاث والدراسات المتوسطية"، المجلد01، العدد01، الجزائر، 01 جوان 2020م.
3. رامي سيدي محمد، **الكشافة الإسلامية في الغرب الجزائري بين الاستعداد، الانطلاقة، والمشاركة في الثورة التحريرية**، "مجلة المعيار"، المجلد 9، العدد 1، الجزائر، 2018.
4. رمضان محمد الصالح، **تاريخ الكشافة الإسلامية الجزائرية**، "مجلة الثقافة"، العدد 70، الجزائر، 1982.
5. شيكو يمينة، **التعليم في المدارس العربية الحرّة وأبعاده الثورية في مدينة المدية في عهد الاحتلال الفرنسي**، "مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا"، المجلد 04، العدد 07، الجزائر، ديسمبر 2013م.
6. مزاري توفيق عبد الصمد، **دور الزوايا التعليمي –زاوية الوزانة نموذجا–**، "أعمال الملتقى الأول حول تاريخ تابلاط وما جاورها"، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2011م.

ط– المجلات:

1. عبد اللطيف محمد، بوكراس محمد، **المدية كنوز ورموز**، "منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية"، مؤسسة شيكو للطبع، المدية–الجزائر، (د،س،ط).
2. **المدية إلهام الماضي وإشراق الحاضر**، "منشورات ولاية المدية بالتنسيق مع مديرية الثقافة"، دار شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، 2012.
3. **المدية عروس الجبال**، "منشورات مديرية الثقافة لولاية المدية"، مؤسسة شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، 2010.
4. مديرية الثقافة لولاية المدية، **المسيرة التاريخية للحركة الرياضية بالمدية**، "مجلة أشير"، العدد 3–4، دار شيكو للطباعة والنشر، المدية–الجزائر، مارس 2005م.

ي– مواقع الأنترنت:

1. https://catalogue.bpi.fr/
2. https://www.oltmedea.dz/fidah/
3. https://www.youtube.com
4. www.gallica.bnf.fr/ Bibliothèque nationale de France.